﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط أدلّة التّوحيد بلفت النّظر إلى خلق الوجود والزّمن آيات لِمَن يعقل

لمّا ذكر اللّهُ تعالى فيما مضى أمرَ توحيده، واستحقاقَ كونه إلهًا واحدًا لا شريك له، وساق الأدلَّة الدّالَّة على ذلك، مُستخدمًا في ذلك بيانَ كونه المُنعمَ وحدَه على خلقه بشتَّى أنواع الإنعام، وكان ما ساقه من ذلك مُتعلِّقًا بالعالم الأرضيِّ، ساق بعد ذلك أيضًا أدلَّة توحيدِه المتعلِّقة بالعالم العُلويِّ، من كونه خالقَ الشَّمس والقمر والنُّجوم، وما هو مرتبطٌ بهذا العالمِ العُلويِّ في تقلُّباته وتغيُّر أحواله كاللَّيل والنَّهار، ومستخدمًا إيّاها جميعًا أدلَّةً لتوحيده، من جهة كونِها كذلك من تجلِّيات إنعامِه على خَلْقِه، داعيًا من خلال ذلك إلى الإيمان به وحدَه، ومعاتبًا في الأمر نفسِه المعرضين الَّذين لم ينتفعوا بهذه الدَّلائلِ الماثلة أمامَهم في كلِّ أوقاتهم، فتراهم - مع وضوحها - يمرّون عليها، وتمرُّ عليهم، وهم عنها معرضون، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَخَّرَ﴾: أصل (سخر) يَدُلُّ عَلَى احْتِقارٍ واسْتِذْلالٍ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُنا: سَخَّرَ اللهُ ﷻ الشَّيْءَ، وذَلِكَ إذا ذَلَّلَهُ لِأمرِهِ وإرادَتِهِ، قالَ اللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجاثية: 13][1]، والتَّسْخِيرُ: سِياقَةٌ إلى الغرض المُختصِّ قهرًا، قال تعالى:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سخر).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: 33]؛ فالمُسَخَّرُ هو المُقَيَّض للفعل[1]، وسَخَّرَهُ تسخيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بلا أُجْرَة[2]، والمعنى المحوريُّ انقيادٌ بيسرٍ مع عدم مقاومةٍ، ويلزم ذلك الخفَّة، كما تجري السَّفينة وتتحرَّك بيُسرٍ، لقوَّتها وضعف مقاومة الماء، في الظَّرف الموصوف[3]، ومعنى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾: هيَّأها لمنافعكم[4].

2) ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾: أصل (نجم) يَدُلُّ عَلَى طُلوعٍ وظُهورٍ[5]، يُقال: نجم الشّيء ينجُم بالضَّم نُجومًا: ظهر وطلع، يُقال: نَجَمَ السِّنُّ، والقَرْنُ، والنَّبْتُ، ونَجمَ الخارجيُّ، ونَجَمَتْ ناجِمَةٌ بموضع كذا؛ أي: نَبَغَتْ - ظهرت - ، وفلانٌ مَنْجَمُ الباطلِ والضَّلالةِ بالفتح؛ أيْ: معدِنُه، والنَّجْمُ: الوقت المضروب، ومنه سُمِّي المُنَجِّمُ[6].

وكانت العرب تؤقّت بطلوع النّجوم لأنّهم ما كانوا يعرفون الحساب وإنّما يحفظون أوقات السّنة بالأنواء وكانوا يسمّون الوقت الّذي يحلّ فيه الأداء نجمًا تجوّزًا، لأنّ الأداء - أي أداء الدّين ونحوه - لا يعرف إلّا بالنّجم ثمّ توسّعوا حتّى سمّوا الوظيفة نجمًا لوقوعها في الأصل في الوقت الّذي يطلع فيه النّجم[7].

والنَّجْمُ من النَّبات: ما لم يكن على ساقٍ، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرَّحمن: 6] ونَجَّمتُ المالَ عليه: إذا وزَّعْتُهُ، كأنَّك فرضت أن يدفع عند طلوع كلِّ نَجْمٍ نصيبًا، ثم صار مُتعارفًا في تقدير دَفْعِه بأيِّ شيءٍ قَدَّرْتَ ذلك[8]، ومن ذلك: تنجيم القرآن؛ أي: نزولُه مُنجَّمًا مُفرَّقًا في أوقات، لا في وقتٍ واحد، والمُرادُ بالنُّجوم هنا: نجوم السَّماء وهي معروفة.

(1) الرّاغب، المُفردات: (سخر).
(2) الجوهريُّ، الصّحاح: (سخر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سخر).
(4) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 3/ 221.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نجم).
(6) الجوهريُّ، الصّحاح: (نجم).
(7) الفيّوميُّ، المصباح المنير: (نجم).
(8) الرّاغب، المُفردات: (نجم).

3) ﴿يَعْقِلُونَ﴾: أصل (عقل) يَدُلُّ عُظْمُهُ عَلَى حُبْسَةٍ فِي الشَّيْءِ أَوْ ما يُقارِبُ الحُبْسَةَ[1]، فالعقل: الحَبْس، يُقال: عقَلْتُ البعيرَ أعقِله عقلًا: قيَّدته بما يحبِسه عن الانبعاث، وسُمِّي عقلُ الإنسان بذلك؛ لأنَّه يمنعه ويحبِسه عن محذوراتٍ[2]، والعَقْل: نقيض الجَهْل، يُقال: عَقَل يَعْقِل عَقْلًا فهو عاقل[3]، والعقل: الدّيَة، والعِقال: ما يعقل به البعير، وسمّيت بذلك؛ لأنّ الإبل كانت تعقل بفناء ولي المقتول، ثمّ كثر استعمالهم هذا الحرف، حتّى قالوا: عقلت المقتول، إذا أعطيت ديته دراهم أو دنانير، وعقلت عنه غرمت عنه ما لزمه من دية وجناية، وهذا هو الفرق بين عقلته وعقلت عنه، ومن الفرق بينهما أيضًا عقلت له دم فلان إذا تركت القود للدّية، وعن الأصمعيّ كلّمت القاضي أبا يوسف بحضرة الرّشيد في ذلك فلم يفرّق بين عقلته وعقلت عنه حتّى فهّمته[4]، ومعنى ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أيْ: مَن لهم عقول يستعملونها في التَّدبُّر والتَّفكُّر فيما هي مُهيَّأة له، مُستعدَّة لتعقل ما تراه وتسمعه[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تسخيرُ الموجودات الكونيَّة للإنسان، ودور العقل في تبصُّر النِّعم السَّماويَّة

كما سخَّر اللّه لكم ما مضى ذِكْرُه من نِعَمٍ أرضيَّة تشاهدونها وتنتفعون بها، كذلك سخَّر لكم ما تشاهدونه من أفلاكِ السَّماء كالشَّمس الَّتي يقع بسببها اللَّيل الَّذي تسكنون فيه، والنَّهار الَّذي تسعَوْن فيه على معيشتكم وأرزاقِكم ومصالحِكم، كما أنَّها تُكسِب النَّبات ما يحتاجه من غذاءٍ عن طريق التَّمثيل الضَّوئيِّ.

وكذلك سخَّر لكم القمرَ نورًا في اللَّيل، ولتعلموا به وبالشَّمس

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقل).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (عقل).
(3) الخليل، العين: (عقل).
(4) الجوهريُّ، الصّحاح، والفيّوميُّ، المصباح المنير: (عقل).
(5) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 447.

عددَ السِّنين والحساب، فضلًا عن معاونتِهما لكم في القيام بعبادة ربِّكم فيما هو مرتبطٌ بكلٍّ منهما من العبادات كالصَّلاة والصِّيام والحجِّ، وكذلك الزَّكاة أيضًا فإنَّها مرتبطة بمرور الحوْل.

ومِمّا هو مُسخَّر لكم كذلك النُّجومُ الهاديات لكم في سيركم باللَّيل برًّا وبحرًا، إنَّ في هذا كلِّه لدلائلَ واضحاتٍ وحُجج باهرات لقوم سجيَّتهم التَّعقُّل والتَّأمُّل والتَّدبُّر، وهؤلاء هم الفائزون، الَّذين يستخدمون نعمةَ العقل فيما خُلق لأجله، فكان لهم نورًا هاديًا إلى تبصُّر الغايات والمقاصد.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة عطف الآية على ما تقدَّمها:

تـوالي التَّـذكير بـالـنِّـعـم والاستدلال على وحـدانـيـة الـلـه تعالى

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾، جملةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، معطوفةٌ على قوله سبحانه: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ﴾، فكلاهُما (الإنبات والتّسخير) من جملة نعم الله على عباده، كما أنَّهما من جملة الأدلَّة على التَّوحيد واستحقاق العبادة والشُّكر.

بلاغة المجاز في لفظ ﴿وَسَخَّرَ﴾:

لـفـظ الـتَّـسـخـيـر مجازٌ عن النِّظام الكونيِّ

التّسخير حقيقته تذليل ذي عمل شاقٍّ أو شاغل بقهر وتخويف أو بتعليم وسياسة بدون عوضٍ[1]، وإطلاق لفظ التَّسخير في الآية على سير هذه الآيات الكونيَّة ضِمنَ النِّظام الَّذي خطَّه الله لها بحيث لا تتخطّاه، هو من باب المجاز؛ وفائدته وسرُّه بيان "أنَّ شَأْنَ عِظَمِها، ألّا يَسْتَطِيعَ - أحد - غَيْرُهُ تَعالَى وضْعَها عَلَى نِظامٍ مَحْدودٍ مُنْضَبِطٍ"[2].

نكتة التعبير بالماضي ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾

تـسـخـيـرُ الـلـه لهذه الآياتِ كان لأجـل اسـتـقـرار الإنسان

تسخير اللَّيل والنَّهار والشَّمس والقمر قد حصل بأمر الله يوم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/ 168.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/ 169.

خلق السَّماوات والأرض، واختارت كلٌّ منهما الانقيادَ لأمر اللّه مُطلقًا، وعدمَ الخروج على ما خطَّه لها من قانون التَّسيير، وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصّلت: 11].

دلالةُ اللّام في شبه الجملة ﴿لَكُمُ﴾:

تسخيرُ ظواهر الكون لصالح الإنسان

في قوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾: اللّام في قوله: ﴿لَكُمُ﴾ هي لام الاختصاص، وغرض التَّعبير بها هو لفتُ أنظارهم إلى ما اختَصَّهُمُ اللّهُ بِهِ من النِّعم التي تجلُّ عن الحصر والإحصاء.

نكتة تقديم شبه الجملة في ﴿لَكُمُ﴾:

التَّقديم في السِّياق لإفادة الاهتمام والقصر

في قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ تقديم لشبه الجملة ﴿لَكُمُ﴾، وهو ما يُفيد الاهتمامَ والقصر الادِّعائيَّ؛ أيْ: لكم أنتم وليس لغيركم، وفي هذا ما فيه من تحقيق رعاية اللّه تعالى بعباده من تسخيرِ هذه الآلاءِ لهم.

معنى (أل) في الألفاظ المُصدَّرة بـ(ال):

الدّلالة على العهديَّة تُفيد النَّظر إلى المعهود المُعيَّن

(أل) في كلٍّ من ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ﴾ هي العهديَّة؛ لأنَّ المقصود بها المُعين المعهود في كلٍّ واحدٍ منها بالنّظر إلى كونه المُسخَّر لنا، حتَّى لفظ النّجوم المقصودُ به أيضًا المعهود منها؛ أيْ: النّجوم الهادية، كما قال سبحانه في السّورة نفسِها بعد ذلك: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النّحل: 16].

بلاغة التَّرتيب بين النِّعم في الآية:

ترتيب النِّعم مبنيٌّ على مدى ظهور الأهمِّيّة

وعلى دأب السّورة فيما مضى في ذِكْر النِّعم، فإنَّها ذكرتها مُرتَّبةً على حسَب ترتيبها في الأهمِّيّة بالنِّسبة للمخاطَبين؛ فكذلك ما هنا أيضًا فقد رتَّبها بهذا الاعتبار، وبشيءٍ آخر هو اعتبار حالِها من الظُّهور والخفاء في رتبة الإنعام؛ فقدَّم ما هو أمَسُّ قربًا بالإنسان وأكثر ظهورًا في مراتب الإنعام وهو اللَّيل ثمَّ النَّهار، ثمَّ ذَكَر بعد ذلك

الشَّمسَ والقمر، ثمَّ ختم بالنُّجوم وهي أخفاها في رتب الإنعام، وأدناها أهميةً بالنِّسبة للإنسان. "فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ للسُّكنى ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ للابتغاء؛ ثمَّ ذكر آيةَ النَّهار فقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ﴾؛ أيْ: لمنافع اختصَّها بها، ثمَّ ذكر آيةَ اللَّيل فقال: ﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾، وذلك لأمور علَّقها به، ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾؛ أيْ: لآيات نصبَها لها"[1].

بلاغة توجيه القراءات في الآية الكريمة:

تسخير النّجوم مرادٌ للمتأمّلين

قرأ ابن عامر: (والشّمسُ والقمرُ والنجومُ) كلُّها بالرَّفع على الابتداء، والخبر هو قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾، وقرأ الجمهور جميعَ هذه الأسماء منصوبةً على المفعوليَّة لفعل (سخر).

وقرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ بالرَّفع على أن يكون قولُه: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ ابتداءً، و﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ خبره، ونكتة الاختلاف بين الإعرابيْن وبين الأسلوبيْن، هي بيان الفرقِ بين التَّسخيريْن من حيث إنَّ الأوَّل واضح، والآخر خَفِيٌّ لقلَّة مَن يرقُب حركاتِ النُّجوم[2].

دلالة الواو في: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ على قراءة الرَّفع، هي واو الاستئناف، والجملة مفصولة عمّا قبلها[3]، وأمّا على قراءة النَّصب، فهي الواو العاطفة للجُملة على ما سبقها من المنصوبات.

معنى (الباء) في قوله ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾:

كـلُّ فـعـل في الكون هو بسبب أمر الله وقدَرِه

في قوله ﷻ: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾؛ الباء للسَّببيّة، فالنُّجوم مُسخَّرة بسبب أمره سبحانه لها، بأن تكون كذلك لتؤدّي وظيفتها المنوطة بها في الحياة، مثلها مثل غيرها من المخلوقات التي يزخر بها الكون.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 11/ 121.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 186، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 116.
(3) الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 4/ 104.

سرُّ التّعبير بقوله: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾:

الأمـــر هـنـا هو الأمـر الـكـونيّ لا الأمر القوليّ

المُرادُ بالأمر هنا هو الأمر الكونيُّ والتَّسخيريُّ الَّذي قضى الله به نظام الكون، وبذلك فإنَّ لَفْظ الأمرِ في قَوْلِه: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ مُسْتَعْمَلٌ مَجازًا في التَّصْريف، بِحَسَبِ القُدْرَةِ الجارِيَةِ على وفْقِ الإرادَةِ، فالأمرُ هُنا مِنْ ذَلِكَ، وهوَ تَصْريفُ نِظامِ المَوْجوداتِ كُلِّها"[1]، ففي قوله: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ إشعارٌ أنَّ كلَّ ذلك قد تمَّ ضِمن مشيئةِ الله وإرادته في تهيئة أسباب الرّاحة للإنسان على هذه الأرض ليقوم بمهمَّته.

غرض تتابع المؤكّدات في فاصلة الآية:

بيان التّأكيد على أهـمّـيّـة المُـؤكّـد عـلـيـه وإيـقـاظ القلوب الغافلة

اشتمل هذا التَّذييلُ على عددٍ من المُؤكِّدات، هدفُها قَرْعُ الآذان لإيقاظ القلوبِ والعقول ولإفاقتِها من داء الغفلةِ عن ربَّها تعالت أسماؤه الَّذي أسبغ عليهم بالنِّعم، ثمَّ هم يكفرونها ويكفرون به، وهذه المُؤكِّدات هي: إنَّ التّوكيديَّة، والجملة الاسميَّة، والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدّالَّة على عُلوِّ المُشار إليه بها، وتقديم شِبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، ودخول اللّام على اسم ﴿إِنَّ﴾، وهو قوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، والتَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ للحثِّ على مواصلة إشغالِ العقل بالتَّدبُّر والتَّأمُّل وتكرُّره ليحصل التَّذكُّر والاعتبار.

نكتةُ تقديم شِبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

في هـذه الآيـات المذكورة الكفاية لمن يعقل

في قوله ﷻ: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ قدَّم السياق القرآنيُّ الحكيم شبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ للاهتمام، ولإفادةِ القصر على معنى: في هذه الآيات، على وجه الخصوص دون غيرها.

معنى اللّام في ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾:

كـلُّ آيـات الله دالَّة على عظمته

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ اللّام في قوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، هي لام الابتداء الّتي تدخل على المبتدأ وتُفيد التَّوكيد.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/ 160.

نكتة تنكير لفظ ﴿لَآيَٰتٍ﴾ في السّياق المحكم:

التَّنكير وارد هنا للتَّفخيم والتَّعظيم

ونُكِّر لفظ ﴿لَآيَٰتٍ﴾ تفخيمًا وتعظيمًا، وذلك لأهمِّيّة ما تدلُّ عليه وهو الدَّلالة على توحيد واهب النِّعم سبحانه.

نكتةُ جمع (لآيات) في ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾:

جمع (لآيات) باعتبار مجموع الأدلَّة المذكورة ومراعاة لجمع (مُسخَّرات)

أمّا عن إفراد ﴿لَآيَةً﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فقد مضى ذِكْرُ سرِّه، وهو وِحْدَةُ المدلول أو وحدة السَّبب، وأمّا الجمع هنا، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فسببُه راجعٌ إلى ما يلي:

أوّلًا: مناسبتُه للجمع في ﴿مُسَخَّرَٰتٌ﴾[1].

ثانيًا: إذا كان الإفرادُ في ﴿لَآيَةً﴾ باعتبار المدلول، فالجمعُ في ﴿لَآيَٰتٍ﴾، باعتبار الدَّليل، فإنَّ الله تعالى له في كلِّ شيءٍ آيةٌ، تدلُّ على أنَّه الواحد[2]، فالدَّليل هنا راجع إلى اختلاف أحوال الشَّمس والقمر والكواكب، وفي كلِّ واحدٍ منها نظامٌ يخُصُّه ودلائلُ تُخالف دلائلَ غيرِه، فكان ما ذُكِر في ذلك مجموع آيات[3].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

القوم الَّذين يعقلون يجدون في الآيات مُعتبَرًا

اللام في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لام التَّعليل، ويُطلَق عليها أحيانًا: لامَ الأجْل[4]؛ أيْ: فعَلَ ذلك كلَّه لأجل قومٍ يعقلون الأمور ويزنونها بميزان العقل والحكمة.

فائدة تنكير ﴿لِّقَوْمٍ﴾ في السِّياق:

التَّفكير فريضة إسلاميَّة يُمدح بها كلُّ من وُصف بها

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جاءت كلمة (قوم) هنا منكَّرةً، وفي ذلك التّنكير مدحٌ لهم وتفخيمٌ لشأنهم،

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 210.
(2) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 2/ 285.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 117.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 144.

لكونهم يتفكَّرون دومًا، وفي هذا دعوةٌ لهم لإعمال عقولهم والتَّفكُّر في هذه الآلاء التي حباهم الله ﷻ بها.

فائدة مجيء لفظ ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

الإيماءُ إلى كون الوصف سجيَّةً فيهم وأنَّه من مُكمِّلات قوميَّتهم

آثر النّظم التّعبير بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دون أن يقول (للَّذين يعقلون، أو للعاقلين) لأنَّ إجراء الوصف على لفظ قوم يومِئُ إلى أنَّ ذلك الوصف سجيَّة فيهم، وأنَّه من مُكمِّلات قوميَّتِهم، فإنَّ للقبائل والأمم خصائصَ تُميِّزها وتشتهر بها كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التَّوبة: 56]، وقد تكرَّر هذا في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن ومن كلام العرب، فالمعنى أنَّ في ذلك آياتٍ للَّذين سجيَّتُهم العقل، وهو تعريضٌ بأنَّ الَّذين لم ينتفعوا بآيات ذلك ليست عقولُهم براسخةٍ ولا هي مَلَكاتٌ لهم[1].

سرُّ التَّرتيب: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ بعد ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

العالمُ العلويُّ مغيَّبٌ فيحتاج مزيدَ تعقُّل

أمّا عن التَّعبير بالعقل في هذه الآية، فإشارةٌ إلى أنَّ العالم العُلويَّ ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾، مُغَيَّب عن الأبصار، فيحتاج المُتأمِّل فيه لمزيد العقل، بخلاف العالم السُّفليِّ فهو مُشاهَدٌ، فيكفي فيه أدنى تأمُّلٍ وتعقُّلٍ، ولذا اكتُفي فيه بـ التَّعبير بـ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أو يُقال: إنَّ التَّغاير في هذا وما قبله وما بعده تفنُّنٌ في التَّعبير، دفعًا للثِّقل، وإشارة إلى أنَّ مَن اتَّصف بواحدٍ منها، فقد اتَّصف بجميعها[2].

نكتة التَّعبير بـ﴿يَعْقِلُونَ﴾ مضارعًا:

مداومةُ التعقُّل توصلُ إلى فرائد المعاني

فائدة التَّعبير بالمضارع في ﴿يَعْقِلُونَ﴾ إفادة التَّجدُّد والاستمرار في الإفادة من نعمة العقل، في التَّفكُّر والتَّدبُّر والتَّأمُّل والعمل على إدراك الغايات، ولحثِّ هؤلاء على بذل الوسع في المداومة على هذه النِّعمة العظمى؛ وفي تكرار التَّأمُّل مرّاتٍ ومرّاتٍ، لأنَّ تكراره

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 89.
(2) الصّاويُّ، حاشية الصّاويِّ على الجلالَيْن: 2/ 285.

وخصوصًا مع مَن هو كَلِفٌ به يُساعد على الوصول إلى فرائِد المعاني، فالخير كلُّ الخير في المداومة عليه، كما أنَّ فيه حضًّا لمَن أهملوا نعمةَ العقل أن يتداركوا ما فاتهم من إهماله، كي يتعقَّلوا الأمور، ويُحصِّلوا غاياتِها وفوائدها.

وفيه كذلك تعريضٌ بالمشركين الَّذين لم يهتدوا بما في هذه الآيات من دلائلَ واضحاتٍ على تفرُّد الله بالألوهيَّة؛ بأنَّهم قوم لا يعقلون؛ لأنَّهم لم يستخدموا عقلَهم فيما خَلَقَه الله لأجله.

بلاغة المُتشابِه اللَّفظيّ:

توجيه اختلاف القراءات يُبرزُ بلاغةَ التَّشابه اللَّفظيّ في الموضعيْن

آيةُ الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 54].

والتَّشابه اللّفظيُّ بينهما ينحصر في ذِكْر الشَّمس والمعطوفات بعدَها ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ هكذا برفْع ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۭ﴾ في النَّحل على قراءة حفصٍ عن عاصم، أمّا الجمهور فيقرؤونها بالنَّصب نسقًا مع ما قبلَها هكذا: (والنُّجومَ).

وفي سورة الأعراف اتَّسقت الآية فيها على نمط آية النَّحل على قراءة الجمهور، هكذا: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 54]، ما عدا ابنَ عامرٍ الَّذي قرأ: (والشّمسُ والقمرُ والنّجومُ) كلَّها بالرَّفع على الابتداء، والخبرُ هو قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتٌۭ﴾، وقرأ الجمهورُ جميعَ هذه الأسماء منصوبةً على المفعوليَّة لفعل ﴿وَسَخَّرَ﴾: (والشَّمسَ والقمرَ والنجومَ)، وقرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ بالرَّفع على أن يكون قوله: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾ ابتداءً و﴿مُسَخَّرَٰتٌۭ﴾ خبره.

ونكتةُ الاختلاف بين الإعرابَيْن وبين الأسلوبَيْن، هو بيانُ الفرقِ

بين التَّسخيرين من حيث إنَّ الأوَّل واضح، والآخرَ خفيٌّ لقلَّة مَن يرقُب حركاتِ النُّجوم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّسخير، والجعْل، والتَّهيئة:

التَّعبير بالتّسخير هنا أدلُّ من غيره على خصوصيّة الغرض المقصود

التَّسخير: هوَ تذليل الشَّيْء وجعلَك إيّاهُ مُنقادًا[2] ومَسوقًا إلى الغرض المُختصِّ قهرًا[3]، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 13]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: 33]، قال ابن عاشور: "والتَّسْخِيرُ حَقِيقَتُهُ تَذْلِيلُ ذِي عَمَلٍ شاقٍّ أو شاغِلٍ بِقَهْرٍ وتَخْوِيفٍ، أو بِتَعْلِيمٍ وسياسةٍ بدون عِوَضٍ"[4].

والتَّهيئةُ: الاستعداد، أو اتِّخاذ وضعٍ مُناسِبٍ لأمرٍ ما، وفيه معنى الانتظار والقَبول أيضًا[5].

والجَعْلُ: لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من فعَلَ وصَنَعَ وسائر أخواتها، في إيجاد شيءٍ من شيءٍ وتكوينه منه، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النَّحل: 72]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النَّحل: 81]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزُّخرف: 10][6].

وبذلك يظهر أنَّ لفظ التَّسخير أبلغ من لفظي التَّهيئة والجَعْل؛ لِما في لفظ ﴿وَسَخَّرَ﴾ من العزم والقوَّة في الدَّلالة على خصوصيَّة الغرض الَّذي سيقت له الآيةُ الكريمة، وهو الدَّلالة على التَّوحيد وطلاقة القدرة، وأيضًا الدَّلالة على الامتنان والإنعام بذلك التَّسخير، وهو ما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/ 271، 20/ 186، والسّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/ 343، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 116.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 255.
(3) الرّاغب، المُفردات: (سخر).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8ب/ 168.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هيأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (جعل)، والكفويُّ، الكليّات، ص: 347.

لا يُحقِّقه لفظُ التَّهيئة الَّذي يخلو من قوَّةِ العزم في الفعل؛ فهو يدلُّ على الاستعداد وربَّما التَّمهيد لشيءٍ آخرَ، والتَّقديم له، كما لا يُناسبه لفظُ الجَعْل، لِما فيه من عمومٍ قد لا يتماهى معه الغرضُ المُراد.

الأمر، والمشيئة، والإرادة:

الـدَّلالـة على سبق القضاء والـتَّـقـديـر هو الـجـامـع بين المُفردات الثَّلاث

من شدَّة التَّقارب الدَّلالي بين الإرادة والمشيئة، ألفيْنا المُعجميِّين يُعرِّفون كلًّا منهما بما يُعرَّف به الآخرُ، فمثلًا يقول ابن منظور: المَشِيئةُ، مَهْموزَةً: الإرادةُ[1].

وفرَّق العسكريُّ بينهما بأنَّ الإرادَة تكون لِما يتراخى وقتُه ولِما لا يتراخى، والمشيئةُ لِما لم يتراخ، قال: والشّاهِد أنَّك تَقول: فعلتُ كَذا شاءَ أو أبى، فيقابل بها إباءه، وذَلِكَ يكون عِنْد محاولة الفِعْل[2].

ونزيد: إنَّ لفظ الإرادة يُطلق على نزوع النَّفس إلى الشَّيء مع الحكم فيه بأنَّه ينبغي أن يُفْعَل، أو لا يُفْعَل، ثمَّ إنَّه يُستعمل مرَّةً في المبدأ، وهو: نزوع النَّفس إلى الشَّيء، وتارةً في المنتهى، وهو الحكمُ فيه بأنَّه ينبغي أن يُفْعَل أو لا يُفْعَل، فإذا استُعمل في حقِّ اللّه فإنَّه يُراد به المنتهى دون المَبدأ، فإنَّه سبحانه يتعالى عن معنى النُّزوع، فمتى قيل: أرادَ اللّه كذا، فمعناه: حَكَمَ فيه أنَّه كذا وليس بكذا، نحو: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: 17][3]، وأمّا مع البشر، فإنَّه يُستعمل في أحد المَعنيَيْن المبدأ أو المُنتَهى، أو في كليْهما معًا.

والمَشِيئَةُ عند أكثر المُتكلِّمين كالإرادة سواءٌ، وعند بعضهم: المشيئةُ في الأصل: إيجاد الشَّيءِ وإصابته، وإن كان قد يُستعمل في التَّعارف موضع الإرادة، فالمشيئةُ من اللّه تعالى هي الإيجاد، ومن النّاس هي الإصابة[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شيأ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رود)
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص 124.
(3) الرّاغب، المُفردات: (رود)، والكفويُّ، الكليّات، ص 74.
(4) الرّاغب، المُفردات: (شيأ).

وأمّا الأمرُ الكونيُّ؛ فيعني القَضاءَ والتَّقْدِير[1]، ويُقال له أيضًا: الأمر التَّسخيريُّ[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة: 117]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس: 3]؛ أيّ إنَّه لا يحدث في العالم العلويِّ، ولا في العالم السُّفليِّ أمرٌ من الأمور، ولا حادثٌ من الحوادث، إلّا بتقديره وتدبيره وقضائه وحُكمه، فيصيرُ ذلك دليلًا على نهاية القدرة[3].

ونخلص ممّا تقدّم: إلى وثاقة العلاقةِ بين المُفردات الثَّلاث (الأمر، والمشيئة، والإرادة)، من حيث دلالةُ ثلاثتِها على سبْق القضاء والتَّقدير، وعلى إيجاد الأشياء وفْق إرادة الله ومشيئتِه، وأمرِه الكونيِّ التَّقديريِّ.

(1) الكفويُّ، الكلِّيّات، ص: 180.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/ 169.
(3) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 17/ 192.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»